

وإنما هي ظاهرة اجتماعية غيرها من اللغات طوى [] أصول اشتقاقها الأولى في بطن الغيب، فلسنا بمستطيعين كما لا يستطيع أصحاب اللغات الأوربية أن نرد ألفاظ لغتنا إلى حيث ولدت، لقد تسلمها أصحابها الجاهليون أداة تامة لا يدرون، وبالتالي لا يدري من جاء بعدهم: كيف تم تمامها، إنها أداة تامة وهم قد مروا عليها ومهروا فلم يعد يعنيه أو يعجزهم أن يستعملوها على هذا الوجه أو ذاك من وجوه استعمالها، لقد استنفذوا تطبيق منطقها فلم تبق صورة من صور خارج دائرة مقولهم المثور والمنطور، ولكن القرآن يبغتهم بصورة من صور البيان لم يستخدم فيها غير تلك الأداة التي هي أدواتهم الفطرية، فتعجزهم الصورة أن يأتوا بمثلها، لقد أدركوا فطرة كما كانوا يتكلمون فطرة أنهم عاجزون أن يأتوا بسورة من مثله، فأما أنا وأنت وضمير الغائب فلن ندرك مدرّكهم هذا الفطري، بيد أننا بدراسة آثارهم ومعرفتها المعرفة التي يتطلبها العلم الحق، قد يتهيأ لنا على نحو من الأنحاء كفاً أعجزهم، إن الإعجاز واقعة تاريخية محققة، أما كيف كان ذلك فتلك هي المسألة.

قلت: يقولون الآن: إن الإعجاز اللغوي قد انصرم عصره، ونحن في عصر العلم، فمنطق الأشياء يقتضينا أن نبذل غاية الجهد في تبيان الإعجاز العلمي للقرآن، هذا الإعجاز الذي يمكن أن يوجه إليه النظر سواء باللغة العربية أو غيرها من اللغات، فإذا نحن بينا - مثلاً - أن قوله تعالى: ((أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما)) يعني ذلك الطور السحيق في القدم حين كانت ((المجرة)) كلا وحدا دخانيا، وما يزال الدخان - أو الغاز - يتركز في بعض أجزاء المجرة فتتكون منه الشمس، ثم تنفصل منها الأرضون والأقمار، أو كما قال:

((كانتا رتقا ففتقناهما)).